

التجارب والضيقات: حدودها وفوائدها

لا تخلو حياة إنسان – أيًا كان – من التجارب والضيقات. فهي للكل، حتى للأنبياء والقديسين، والأمثلة عديدة، نذكر منها ما تعرض له أيوب النبي ويوسف الصديق...

فلا يظن أحد أن التجارب والضيقات هي للخطاة فقط بسبب خطاياهم. وإنما هي لجميع الناس. وهناك فرق بين خاطئ يتعرض لضيقة بسبب أخطائه، وبين بار تصيبه ضيقة بسبب شر الآخرين أو حسدهم، أو لأي سبب خارج عن إرادته

وجميع الأبرار اجتازوا بوتقة الألم، واختبروا الضيقة والتجربة، ولم يستثنهم الله من ذلك.

فكثيرة هي أحزان الصديقين، ومن جميعها ينجيهم الرب. "كثيرة هي بلايا الصديق، ومن جميعها يُنجيهِ الرَّبُّ" (سفر المزامير ٣٤: ١٩)

وحدوث تلك التجارب، لا تعنى مطلقًا تخلى الله عن أصابتهم تلك المتاعب والضيقات. كما لا تعنى غضبه عليهم أو عدم رضاه!!

بل أنه – تبارك اسمه – قد يسمح بالتجربة لمنفعتهم. ويكون معهم في التجربة، يعينهم ويقويهم ويحافظ عليهم، ويسندهم أيضًا...

إنه يسمح بالضيقة، ولكنه يقف معنا فيها...

وهكذا يغنى المزمور ويقول "لولا أن الرب كان معنا، حين قام الناس علينا، لابتلعونا ونحن أحياء، عند سخط غضبهم علينا... نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين. الفخ انكسر ونحن نجونا. عوننا من عند الرب الذي صنع السماء والأرض" (مز ١٢٤).

إنه اختبار جميل: أن نرى معونة الله في خلال ضيقاتنا...

وأن نختبر حنو الله ومحبته وعمله من أجلنا. وهذه هي إحدى فوائد التجارب التي فيها نشعر أن بعض القوات السماوية تقف معنا، وتصد عنا. ونختبر أيضًا قول المزمور "ملك الرب حال حول خائفيه وينجيهم".

من أجل هذا، فإن المؤمن لا يمكن أن تتعبه الضيقات. ذلك لأنه يؤمن بتدخل الله وعمله وحفظه. ويؤمن بأن الله يهتم به أثناء الضيقة أكثر من اهتمامه هو بنفسه.

وكلما حلت به مشكلة، يؤمن أن الله قادر على حلها، بل أن الله عنده حلول كثيرة. لذلك فالمؤمن لا يفقد سلامه الداخلي أثناء التجارب، ولا يفقد اطمئنانه، وثقته بعمل الله.

إن كل تجربة هي بلا شك مجال لخبرة روحية جديدة، تعمق مفاهيم الإنسان برعاية الله وعمله وانقاذه...

على أن الله – في شفقتة وحنانه – قد وضع قواعد معينة للضيقات التي يسمح لها ان تحدث. وفي مقدمتها:

+ إن الله لا يسمح بتجربة هي فوق طاقتنا البشرية

إنه – جلّت قدرته – يعرف مقدار احتمال كل واحد منا، ولا يسمح أن تأتيه التجارب إلا في حدود احتمال طاقته البشرية

ولعل أحدهم يسأل: ما أصعب التجربة التي وقعت على أيوب الصديق، في موت أولاده، وضياع ثروته، وفقد صحته، وتخلي أصدقائه... من كان يستطيع أن يحتمل كل هذا؟!!

ونجيب بأن الله كان يعلم أن الطاقة الروحية لأيوب كانت تقدر أن تحتمل كل هذا، لذلك سمح بما حدث

أما أنت فلا تخف. لو كنت في قامة روحية مثل أيوب، لأمكن أن تتعرض لمثل تجاربه. ولكن الله لا يسمح لك أن تُجربَ إلا في حدود احتمالك.

+ الشرط الثاني ان الله لا يسمح بالضيقة إلا ومعها المنفذ...

أى تأتي المشكلة ومعها الحل. فلا توجد تجربة وهي حالكة الظلام، دون أية نافذة من نور... فليس هناك مجال لليأس. إن الحل موجود، وربما يحتاج إلى شيء من الوقت، يمنح صاحب التجربة فضيلة الصبر وانتظار الرب. حيث ينظر إلى المشكلة في رجاء، يرى الحل بعين الايمان قادمًا من خلال محبة الله وقدرته... والله قادر أن يمنح الاحتمال والصبر.

+ ينبغي أن نعلم أيضًا أن التجارب التي يسمح بها الله، هي للخير. أو تنتهى بالخير

فكل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الرب.

حتى إن كانت المشكلة تبدو شرًا في ذاتها، فإن الله بصلاحه قادر أن يحولها إلى خير. وهكذا فالإنسان المؤمن يؤمن بخيرية التجارب، سواء في وقتها أو فيما بعد... ولهذا فإن التجارب لا تطحنه، ولا تضغط عليه، ولا تفقده سلامه. وكثيرًا ما كنت أقول:

"إن الضيقة سُميت ضيقة، لأن القلب قد ضاق عن أن يتسع لها. أما القلب الواسع فلا يتضيق بشئ"

+ شرط رابع للتجربة: إن لها زمنًا محددًا تنتهي فيه..

فلا توجد ضيقة دائمة تستمر مدى الحياة... ولهذا ففي كل تجربة تمرّ بك، يمكنك أن تقول "مصيورها أن تنتهي" أي سيأتي وقت تعبر فيه بسلام... إنما عليك - خلال هذا الوقت - أن تحتفظ بهدوئك وبسلامة أعصابك. فلا تضعف ولا تنهار، ولا تصغر نفسك أمام التجربة. ولا تفقد الثقة في تدخل الله ومعونته وحفظه...

واعلم ان التجارب نافعة بلاشك. ولولا منفعتها، ما كان الله الشفوق يسمح بها...

وما اكثر الفضائل التي يمكن أن نحصل عليها، إن كنا نتعامل مع الضيقات بطريقة روحية.

إنها تقوى النفس، وتمنحها ألوانًا من الخبرات، سواء في معالجة المشاكل، أو في الرجاء والإيمان بعمل الله. أو في الحكمة التي يكتسبها المختبرون، أو في التدريب على الصمود وقوة الثبات أمام الضيقة حتى تنتهي، مع التدريب على الاحتمال والصبر...

ولولا الدخول في بوتقة التجارب، لأصبحت النفوس هشة مدللة لا تقوى على شيء، ولم تتدرب على الدخول في الصعاب واحتمالها..